التغيير.. وإحكام بُنَى المجتمع والتواؤم بين العهدين المكي والمدني في ذلك سورتا آل عمران والحجر

« ١ »

هذه عودة إلى تلكم الآيات الكريمات التي جرت الإشارة إليها في كلمات سلفت، من أجل متابعة الانتفاع بدلالة المعلم القرآني فيها.

والآيات هي قوله تعالى في سورة «الحجر» المكية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ وقوله جل وعلا في سورة «آل عمران» المدنية: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

فالنظرة المتدبرة في هذه الآيات المكي منها والمدني وأمثالها مع ما جاء من بيانها في السنة المطهرة تؤكد حقيقتين اثنتين ما بدٌّ من الإشارة إليهما فيما تعملان من عمل هادٍ بنَّاءٍ في نطاق الفرد والجماعة.

أولاهما ـ مكانة المنهج الخلقي في رسالة الإسلام، وبناء الفرد والمجتمع على قيم هذه الرسالة ومبادئها، إذ إن القضية بدأت من العهد المكي واستمرت إلى العهد المدني؛ فالأخلاق في العهد المكي: حيث الاستعلاء المتجدد ومحاولة فتن المؤمنين عن

الدين: لبنة كريمة من لبنات البناء وتنمية الفاعلية عند تلك الفئة المؤمنة التي كان عليها أن تصارع الشرك وأهله وترتاد للإنسان ـ على المستوى العالمي ـ بدءاً من الجزيرة العربية، طريقة إلى التغيير وتجاوز ما هو واقع به من التمزق والضياع.

والأخلاق في العهد المدني: حيث شرع القتال واتجهت واجبات البناء اتجاهاً آخر من الإمساك بالزمام، والمسؤولية عن صياغة الواقع الجديد، الذي ينتقل بالمبادىء والقيم في تنظيم شؤون الإنسان والحياة إلى الوجود العملي في كل ميدان وعلى كل صعيد.. هذه الأخلاق في العهد المدني بدت أيضاً لبنة كريمة من لبنات البناء، وأساساً من أسس التنمية للطاقة البشرية والاجتماعية.. وانعكاسُ ذلك على كل ميادين الحياة في الاقتصاد والثقافة وإنشاء القوة الذاتية للأمة: واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

وإذن: فهناك نوع من التكامل بين العهدين المكي والمدني في منهج الأخلاق والسلوك، فحين لم يكن زمام الصياغة للمجتمع وبنائه على الشكل الذي ينبغي بين المسلمين: كانت العناية ببناء الإنسان على العقيدة وتطويع الأخلاق والسلوك لمقتضياتها، وذلك ما مهد بشكل طبيعي للبناء على شموله واستيعابه لحملات السلم والحرب في العهد المدني.

وحين جاء العهد المدني ـ والبناء على العقيدة وتطويع الأخلاق والسلوك لها مستمر ـ: شمَّر أولئك الذين أُحكم بناؤهم على النهج المشار إليه وشرعوا بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام بإنشاء الواقع الذي يمليه الإسلام على صعيد الفرد والمجتمع بل والأمة بشكل أعم. وتلكم الأخلاق ثابتة ثبات الآيات والأحاديث المرتبطة بها، كما سنشير في حديث قادم إن شاء الله. والمهم أن يصدق المسلمون في العودة إلى تلكم المنابع الخيرة وصياغة الواقع على هديها وتوفيق الله كائن ما صدقت النيات، واستقام السلوك، وعزم جند الحق عزمهم مع الوفاء بما عاهدوا الله عليه فلم يبخلوا بالعطاء وكانوا جدَّ شاكرين لكل نعماء.

التغيير والتكامل.. في منح الأخلاق والسلوك
وحقيقة أخرى على طريق البناء آل عمران والحجر
«٢»

ما كان لعاقل أن يماري في أن الطاقة البشرية التي بنتها يد محمد ﷺ الصنّاع في ضوء ما جاء به القرآن وأشرقت به معالمه الخيرة المباركة: قد استطاعت ـ بعون الله ـ أن تمارس عملية البناء الكبرى على قواعد أخذت طابع العموم وقابلية الاستمرار، في تجاوز للحدود الإقليمية والزمنية.. ومنهج الأخلاق والسلوك جزء لا ينفصم عن تلكم المقومات التي قدمت للإنسانية على صعيد الفرد والمجتمع، ما أن لو أخذت به، وانتها السعادة في الدنيا والآخرة.

والآيات في سورتي الحجر وآل عمران ـ وأمثالها كثير ـ توحي بتكامل المنهج المشار إليه ـ كما أسلفنا في قول قريب ـ لأننا نرى الأخلاق في العهد المكي ونراها في العهد المدني، وفي كلٍ منهما أخذت حجمها الذي يتسق مع سلامة العقيدة وتطويع الأخلاق والسلوك لمقتضياتها.

والآيات البينات هي قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ وقوله جل شأنه في سورة آل عمران خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

هذا وقد وقفنا المعلم القرآني فيما سبق من القول ــ من خلال الآيات في السورتين ــ على واحدة من حقيقتين وهي التكامل في منهج الأخلاق والسلوك في العهدين المكي والمدني وهو ما أسلفناه من قريب.

أما الحقيقة الثانية: فهي أن ما كان من صنيع رسول الله ﷺ في توظيف الأخلاق ــ وهي مرتبطة بالعقيدة ــ وإعطائها مكانها اللائق على طريق البناء الاجتماعي وإحكام التماسك في بنية المجتمع.. ما كان من ذلك واضحٌ فيه أن منهج الأخلاق يتسم بالثبات، ثبات الحقيقة المرتبطة بالدين، فهو منهج لا يعرف النسبيةَ والتذبذب بين المصالح، بعيداً عن سلامة السلوك.. النسبيةَ التي تجعل ما يكون اليوم خلقاً مرغوباً فيه يدعى إليه.. خلقاً محظوراً في الغد يُرغب عنه وينفر منه، فهو فضيلةٌ اليوم ولكنه رذيلةٌ غداً، تتقاذف صاحبه أو أصحابه ــ كما نرى في أعداء الإسلام ــ المصالحُ النابعة من الهوى والأغراض التي لا تقيم وزناً للحق في ذاته، ولا للفضيلة كما هي بإطلاق. نقول هذا وجراحات الأمة لا تنفك تثغَب دماً من صنيع أولئك الأعداء في دنيا الواقع حيث ما يسمى زوراً وبهتاناً بالأخلاق.

المنظمات الدولية تظل حبراً على ورق، إن لم تكن هناك قوة تحمي الحق من حيث هو حق، وتدافع عن الفضيلة من حيث هي فضيلة. وهذا ما يؤكد وجوب أن يكون للأمة مع منهجها في الأخلاق والسلوك: قوة تحمي الدعوة وتحرر المسلمين وديارهم من الطغاة والغاصبين ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ومن الإعداد: البناءُ على العقيدة وحب الجهاد والاستشهاد، ومن الإعداد للقوة: أخذ الأسباب بالعلم التجريبي والاقتصاد وما إلى ذلك، وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

التغيير والبناء.. وعودة إلى آيات سورة الحجر

«٣»

نعود اليوم إلى آيات سورة الحجر بدءاً من الآية الخامسة والثمانين لنرى أن النبي ﷺ أُمر بأن يصفح الصفح الجميل في آية وأُمر بأن يخفض جناحه للمؤمنين في آية أخرى. ذلكم قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

المشركون ــ في العهد المكي ــ يعملون على سلوك الأسباب التي يرون أنها تقضي على الدعوة في مهدها، ومن ذلك: الإيذاء المستمر لرسول الله ﷺ والمسلمين ــ على قلة عددهم ــ بالقول والفعل والافتراء وكل ما هو من ذلك بسبيل.. ويؤمر رسول الله ﷺ بأن يصفح عن هؤلاء المؤذين من قومه الصفح الجميل، فيعرض عنهم إعراضاً لا جزع فيه.

ولقد عمل هذا الخلق عمله وأعطى نتائجه الطيبة.. وبخاصة في تلكم الفترات التي كان يتسنى لبعض العقلاء أن ينتصروا على دواعي السلطان والهوى والتقليد الأعمى للآباء والأجداد، فيراجعوا أنفسهم ويروا أن الفضائل التي يتحلى بها رسول الله ﷺ وأصحابه من ورائه. جديرة بأن تسلِّمه قيادة الركب، وأن يكونوا من جنوده، فيسعدوا في عاجل أمرهم وآجله، ويجدوا ذواتهم بعد أن كانت ضائعة في كهوف الوثنية والخرافة وما يمليه العرَّافون، والمشعوذون. ولقد ظل العفو والصفح الجميل، والصبر على الأذى، واحتمال ما لا تحتمله الجبال الرواسي من صنيع المشركين.. ظل ذلك كله ديدن رسول الله ﷺ والفئة القليلة المؤمنة الصابرة طوال العهد المكي الذي استدام ثلاثة عشر عاماً بشهورها وأيامها ولياليها.

حتى إذا جاء الإذن من السماء بالقتال: نسخ وضع هذه الأخلاق في مواجهة أعداء الله الذين كان همهم وشغلهم الشاغل القضاء على الإسلام وأهله.. فحركة الإفناء التي كانوا يحاولونها لا يصدها، ويفسح لدعوة الله أن تنتشر في الآفاق إلا الجهاد الذي يصحبه ويسبقه ويلحقه دائماً الحوار الواعي الأمين، والعلم والتعليم، في مخاطبة موضوعية للعقل والقلب والفطرة، ناهيك عن السلوك العملي الذي لا يتجافى عن القول، بل يؤيده ويكون صورةً حية له. ها نحن أولاء نقرأ في سورة مدنية هي سورة الحج قول الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

وموعدنا ـ إن شاء الله ـ في متابعة قادمة نستلهم من خلالها بعضاً من عطاء المعلم القرآني في هذه الآيات، وكونها تمثل نهج المرحلة التي تلت مرحلة الأمر بالعفو والصفح والصبر وما إلى ذلك. الأمر الذي يدل على وجوب التعامل مع أعداء الحق باللغة المناسبة، دونما عدوان على الأخلاق. وجميل قول شاعرنا:

ووضع الندى في موضع السيف بالعُلى مُضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

وفي واقع أمتنا وما تعاني في شتى البقاع: ما يدعو إلى وجوب تمثل هذه الحقائق وبخاصة عند المؤتمنين على صنع القرار وتنفيذه. ولله عاقبة الأمور.

التغيير والتكامل في منهج البناء
وقبسات أخر من آيات الحج

« ٤ »

وفاءً بموعد قريب، أعود اليوم إلى متابعة ما سبق وفي الجعبة قبسات أخر من عطاء المعلم القرآني حول آيات كريمات من سورة الحج هي قول الله جلت قدرته بدءاً من الآية التاسعة والثلاثين: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

وجمهور العلماء على أن الآية الأولى هي أول آية نزلت بشأن الجهاد، حيث أذن الله للمسلمين بأن يقاتلوا في سبيله بعد أن ظلوا طوال العهد المكي وهم لا يؤذن لهم بقتال، وإنما هو الصبر والصفح واحتمال الأذى وضبط النفس قدر المستطاع. قال الحافظ ابن كثير: (قال العوفي عن ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف كابن عباس وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم: هذه أول آية نزلت في الجهاد).

وأخرج الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما أُخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكُن، قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال». ورواه الإمام أحمد وزاد: قال ابن عباس: «وهي أول آية نزلت في القتال».

والحق أن هذه الآية ـ كما اشتملت على الإذن بالقتال لمن يقاتَلون ويُصَدّون عن طريق الهدى ويفتتنون عن دينهم: اشتملت على أمرين عظيمين آخرين: نشير اليوم إلى واحد منهما وندع الآخر لما بعدُ إن شاء الله.

فأولهما ـ تعليل الإذن بالقتال: ببيان سببه (بأنهم ظلموا) بسبب أنهم ظلموا، وتعرية الظلم على هذه الشاكلة خلال رحلة البناء وارتياد السبيل الأمثل للإنسانية وهي سبيل التوحيد وأن تُعلن الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» إعلانها في الأرض.. تعرية الظلم على هذه الشاكلة خلال تلك الرحلة: أمر عظيم.. يكشف عما لهذا الانحراف الذميم، من آثار سيئة لا على الفرد فحسب بل على الجماعة عموماً: وفي الحديث القدسي الصحيح الذي رواه مسلم «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**» فالفئة المؤمنة في مكة ظُلمت ظلماً شديداً وبغى عليها المشركون وتجاوزوا في معاملتها حتى أبسط ما توجبه الرجولة في معاملة الإنسان لأخيه الإنسان. ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴿٣٩﴾﴾ إن باء السببية هذه (بأنهم ظلموا) تعطي الكثير الكثير على طريق البناء وتنمية المشاعر الصادقة عند المسلم، بأنه على الحق الذي ينكر الظلم ولا يرضى عن الجور، وأنه عندما يقاتل أعداء الله بعد ثلاثة عشر عاماً من تحمل الأذى والفتنة عن الدين، والصبر والمصابرة مع العفو والصفح: يمكّن للعدل والمساواة والنصفة في الأرض، ويحول دون الظالمين أن يكون لهم الكلمة على عباد الله سبحانه وتعالى الذي حَرَّم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرَّماً.

التغيير والوعي في منهج البناء...
والآية التاسعة والثلاثون من سورة الحج

« ٥ »

هذه عودة إلى متابعة رحلتنا العجلى مع الآية التاسعة والثلاثين من سورة الحج التي أعلنت في أعقاب العهد المكي الإذن بجهاد أعداء الله والقتال في سبيله وهي قول الله جلت حكمته: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

ولقد كان من عطاء هذه الآية على صعيد البناء الذاتي، والاقتناع بطبيعة الحركة التي يتحركها المسلم وهو يشق طريقه إلى الإصلاح والتغيير إلى ما هو الأفضل للإنسان بوصفه إنساناً أينما كان.

لقد كان من عطائها: أن الشق الأول منها حمل مع الإذن بالقتال تعليل هذا الإذن ببيان السبب فالسبب المباشر أن المؤمنين ــ على قلة عددهم ــ قد ظلموا والظلم هو التجاوز في الأصل.. قد ظلموا، فحصل التجاوز على الحريات والحقوق والحرمات، وانتهكت حتى أبسط قواعد التعامل والتعايش المشترك بينهم وبين المشركين. ثلاثة عشر عاماً تمضي في مكة والصد عن سبيل الله والكفر به وبالمسجد الحرام ومحاولة الفتنة عن الدين بشتى الأساليب كل ذلك قائم ليل نهار.. حتى انتهى الأمر بإخراج المؤمنين مهاجرين من ديارهم وأموالهم.

كان ذلك هو الأمرَ الأول مما أشرقت به الآية الكريمة وهي تمثل منعطفاً جذرياً في حياة المسلمين ودعوة الإسلام. وقد أشرنا إليه فيما سلف. أما الأمر الثاني ــ فهو ما يدل عليه ختام الآية الكريمة وهو شقها الثاني في قول الله جل وعز: ﴿ وَإِنَّ

اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. ألا إنها لمحة مضيئة مباركة من لمحات المنهج الرباني في البناء ودرس أيٌّ درس في تنمية الوعي عند المسلمين وبخاصة في المراحل الحاسمة، وما أشد احتياجنا إلى ذلك اليوم وكل يوم. أرأيت إلى هذا التأكيد بإن وباللام ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. إنه سبحانه قادر على نصر عباده المؤمنين ورفع الظلم عنهم، والتمكين لهم في الأرض.. هكذا دون قتال.. ولكنه جل وعلا: أقام الحياة على سنن لا تتخلف وربط المسببات بالأسباب والنتائج بالمقدمات، فهو يريد لعباده المؤمنين أن يُعِدُّوا العدة، وأن يسلكوا سبيل التمكين ببذل الأموال والأنفس في سبيل الله.. إنه يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته.. ومن الطاعات العظيمة بذل الجهد قتالاً في سبيل الله، تحت راية الجهاد الخالص لإعلاء كلمة الله.

والآن أفلا يشاركني القُرَّاء الرأي بأن ما حملته الآية الكريمة ـ على وجازتها ـ من الإذن بالقتال مع بيان السبب، والتوجيه إلى أن الله قادر على نصر عباده بلا قتال ولكن يريد منهم أن يبذلوا جهدهم في طاعته. أفلا يشاركونني الرأي بأن الآية تحمل الكثير الكثير من توعية المسلمين وتبصيرهم بطريقهم، وبطبيعة المرحلة التي تمر بها الدعوة، وتجعلهم يدركون الأبعاد الحقيقية لهذا الإعلان الخطير على رأس العهد المدني بعد الهجرة.. وبأن المسلم عندما يخوض المعركة باذلاً ما استطاع من النفس أو المال والنفس يخوضها على بينة من أمره، قد تبصَّر بالغاية والوسيلة وليس رقماً جامداً يقاد إلى ساحة القتال دون وعي ولا إدراك، إنه يبتغي الشهادة في سبيل الله ويقاتل امتثالاً لأمر الله فلا اعتداء ولا ظُلم!!.

ثم إن في ذلك الخيرَ كلَّ الخير لبني الإنسان؛ ذلكم ما أخبرت به الآية التي تلت آية الإذن بالعدل مباشرة وهي قول الله جل شأنه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

البناء.. والنقلة من الماضي إلى الحاضر

« ١ »

ما يقفنا عليه المعلم القرآني في سورة الأنعام وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ وثيق الارتباط ــ من بعض الوجوه ــ بما جاء في سورة الفرقان كما يوحي السياق ــ من قول الله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾[الفرقان: ٢٥].

وهو ارتباط بيانٍ لنزعة نفسية جاهلية؛ فقد كشف الله عن حقيقة الموقف الجاهلي المعادي النابع من التراكم المنحرف في النفوس، وبين أن هذا يشير بوضوح إلى ظاهرة استكبارهم في أنفسهم وعتوّهم الكبير، ثم توعّدهم على ذلك بقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

وهذا يؤكد بما لا يحتمل إثارة شك: أن المؤتمنين على البناء وتنمية فاعلية الفرد والمجتمع، كيما يتحقق للأمة ما تصبو إليه من وجود ذاتي كريم... يؤكد ما يبدو لأهل البصيرة من ضرورة أن يكون هؤلاء على الجادة وعياً لرسالتهم في الحياة، ومعرفةً دقيقة بطبيعة المواجهة مع الهدم والهدامين. وهذا يقتضي أن تبدأ عملية البناء من الفرد، وبخاصة من يراد له أن يكون على خط المواجهة.. كما يؤكد ضرورة أن تعرَّى مواقف التحدي الماكرة المبطلة، وأن يخاطب أصحابُها باللغة المناسبة ضمن ما يكون من ظروف وملابسات.

وذلك ما نراه في سورة الفرقان، ورأيناه في سورة الأنعام، وكان ذلك خير عون للفئة القليلة المؤمنة كيما تتبيَّن منهجها ولا تنخدع بالمظاهر الكاذبة، وفي الوقت نفسه، لا تتهيب مشقات الطريق!.

وقيم الرسالة الإسلامية التي تنزلت وحياً من السماء، وأعطت العقل مكانه الطبيعي في فهم النص، والتفكرِ في آلاء الله، والاجتهادِ فيما لا نصَّ فيه.. هذه القيم: منهج بناء ومسالك نماء، تأخذ طابع الشمول وتجاوز الحدود الزمانية والمكانية: من طبيعة الرسالة نفسها، مصداقاً لقول الله تعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾.

ومن ثمَّ فإن النقلة ليست بعيدة بين الزمن الذي تنزلت فيه آيات سورتي الأنعام والفرقان ونظرائها، وبين الزمن الحاضر محتوى الواقع الذي تعيشه الأمة، وهي تتطلَّع إلى مستقبل تتبدَّل فيه المواقع، ويتحوَّل ميزان القوى على الصورة التي كان عليها بالأمس، يوم كانت الأمة الإسلامية صاحبة القرار، ممكَّنة في أرض الله، وهنالك تتنفس الإنسانية الصعداء من جديد..

إن هذه النقلة أمل يراود أهل الصلاح والإصلاح المتبصرين من المسلمين، كما يراود المنصفين من غيرهم، أولئك الذين يحكمهم حب الحقيقة ويرجون لله وقاراً!!.

وما أحسبني مغالياً إذا ذهبت إلى أن انعكاس هذه المقولة كائن لا محالة على الميادين كلها؛ ثقافية كانت، أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية..

ذلك بأن وعي البناة المؤتمنين على إحداث المؤسسات ـ التي تترجم المبادىء إلى حركة واقعية في مرضاة الله عز وجل ـ لطريقهم، وحسنِ الإعداد لهذه الطريق على الشكل الذي ينبغي ويتناسب مع عظمة الغاية المطلوبِ الوصولُ إليها، وهو الإعداد الذي لا يهمل جانباً من الجوانب ذات العلاقة بإحكام البناء وفق مضمونات الإسلام، في حرص على تنمية الموارد البشرية والاقتصادية وغيرها، ومعرفة بطبيعة المواجهة والتحدي، مع مراعاة الظروف كلها والملابسات، والوعي لسنن الله الكونية التي لن تجد لها تبديلاً ولن تجد لها تحويلاً.

كل أولئك جدير ـ بإذن الله ـ أن يجعل الصلة بين القيم التي تطرحها معالم الكتاب العزيز، وبيانها من السنة النبوية، صلةَ حركة ودفعٍ للقافلة إلى الأمام، صلةَ إنشاء للوعي الذي ينبغي، والحوافز الفعَّالة التي تصنع ـ بعون الله ـ الكثير الكثير، خصوصاً إذا لوحظ أن البناة الصادقين المؤهلين لا ينطلقون من فراغ؛ فمع الرسالة الخاتمة، والتاريخ العريق، والحضارة المثلى: ما يتوافر لعالم الإسلام من المقومات البشرية والاقتصادية والجغرافية، وما هو في خدمة ذلك كله.

والمهم أن تصدق العزائم طلباً لطاعة الله، وتوظف المعرفة بقيم الإسلام على طريق اليقظة التي لا تنفصل عن الانتفاع بالعلم والتجربة، وتثمر البناء المحكم القويم.

وقفات مع آيات النقلة والبناء.. ومدلولات الوقائع

« ٢ »

تنمية الوعي ـ الذي لا تنقصه قاعدة المعرفة ـ لدلالات الوقائع المتجددة على ساحة الصراع بين قبيل الحق وقبيل الباطل في تاريخنا، يوم كان رسولنا النبي الأمي عليه الصلاة والسلام يسهر ـ بدءاً من العهد المكي الذي ابتدأ بإشراق نور الرسالة ـ على تجديد حركة الإنسان مع الحياة، ويعمل على أن تكون تلك الحركة عنوان نجاح وفلاح في الدنيا والآخرة «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**» رواه أحمد.

هذه التنمية لتلكم المدلولات على هدي العطاء القرآني الذي يلاحق الواقعة، خطوة فخطوة، وينشر عليها معالم هدايته.. تبدو اليوم وكلَّ يوم، ضرورة تربوية وثقافية، يقتضيها ـ مع مراعاة التمخض الإقليمي والعالمي ـ ما يرجَّى من إعداد المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ إعداداً سليما بفكره وتصوراته، وبنائه بناءً يمكنه من الإنجاز المثمر بموضوعية واندفاع ذاتي في كل ميدان من ميادين الحياة، لأنه يحمل رسالة الحياة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ذلك بأن عطاء المرحلة التي نشير إليها، والتي قاد فيها رسول الله ﷺ رحلة الإخراج من الظلمات إلى النور، المذكورة المشكورة في التاريخ: عطاء متجدد، لا ينال منه امتداد الزمن، بل يزيد اختلاف الليل والنهار من إلحاح الحاجة إليه، ولا يعدو على ذلك تباين البيئات والظروف، بل يكشف عن شدة الافتقار ـ أيضاً ـ إليه؛ ذلك بأنه عطاء يحمل سر النفاذ والتأثير، ويذكر ـ على المدى ـ بالانتصار على أولئك الدعاة على أبواب جهنم أكابر مجرميها، والذين كان مما أنزل الله فيهم ـ وهم يمكرون بدعوة الحق ـ قوله جل ثناؤه في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ

حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقوله تباركت أسماؤه في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

والمهم في الموضوع: أن يكون الفرد المسلم والمجتمع المسلم على المستوى الذي يمكّن من الإفادة المبصرة وتوظيف ما يستفاد من الوقائع على طريق اليقظة التي تومىء تباشيرها إلى الكثير الكثير من الواجبات، والثقيلِ الثقيلِ من الأعباء!!.

والملاحظ من خلال الآيتين المشار إليهما ـ وهما من آيات العهد المكي ولهما في الكتاب الكريم نظائر ـ.. الملاحظ أن القرآن الكريم كان واضحاً فيما ذكر من التحديات التي واجهت الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يُغدُّ السير أداءً للرسالة على طريق البناء.. فترى الآيات تكشف عن صنيع أهل الشرك فيما أجرموا، وحكّموا أهواءهم، ومكروا، وتُبين عما توعدهم الله به من العقوبة والعذاب..

وفي ذلك ما فيه من تنبيه المؤمنين على ما يجب في هذا المضمار وتربيتهم على استكمال المقومات التي لا بد منها لمواجهة التحدي، وتنمية إحساسهم بالجريمة التي يرتكبها أولئك الهدامون عندما يصدون عن سبيل الله، فيُعرضون عن الحق ويمكرون بدعوة الخير والبناء، وإحساسهم كذلك بالمسؤولية على صعيد المواجهة التي لا تتوقف، ولا تخبو نارها على كل صعيد وفي كل ميدان، ما دامت رحى الصراع بين الحق والباطل دائرة ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾.

ويجيء الرد الواضح الذي يضع الأمور مواضعها ويكشف عن أن المعايير التي تحكم جعل الرسالة أين تجعل: هي المعايير التي يقتضيها علم الله وحكمته، لا تلك التي توحي بها الأهواء ونَزَغُ الجاهلية والشيطان.

يجيء الرد الواضح بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ويتلو ذلك توعدهم بالعقوبة على صنيعهم فيقول سبحانه: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾.

هذا الوضوح الذي نراه في عرض الوقائع على ساحة التحدي ومُظاهرةِ أهل الشرك على التوحيد وأهله، يحذِّر مغبة التهاون، ويضاعف مسؤولية المؤتمنين على بناء الجيل ـ تربية وتزكية ـ أن يصلوه جاهدين بتلكم المنابع الأصيلة في كتاب الله والسنة المطهرة، وأن يعملوا بمنهجية جادَّة ـ من خلال ذلك ـ على تنمية إحساسه بالواجب، وإنشاء الحوافز الداخلية التي تفوق الحوافز المشروعة الأخرى على أهميتها، علماً بأن العدو المتربص لا يعرف مهاودة ولا يدع فرصة تفوته في أي ميدان من الميادين. إن الله قوي عزيز.

وقفات مع آيات البناء.. وصورة أخرى من صور المواجهة والتنبه إلى دقة المعايير

«٣»

في اصطحابنا لواحد من المعالم القرآنية من قريب، سعدنا بالكشف عن الطريقة التي سلكها الكتاب الكريم في إيضاح ما كان من بعض صور التحدي التي واجهت الرسالة والرسول منذ اليوم الأول من العهد المكي، والتي كان من أمثلتها ما شهدنا في سورتي الأنعام والفرقان، حيث دلت الكلمة الهادية على صنيع أكابر مجرميها، وتحديدِ المعايير التي تحكم ـ بعلم الله ـ جعل الرسالة أين يكون، والوعيدِ الشديد لأولئك الذين جاهروا الله ورسوله بالعداوة، وكان شغلهم الشاغل تعويق مسيرة الخير، والحيلولة دون البناء الشامل للفرد والمجتمع أن يأخذ طريقه إلى الوجود، عبوديةً صادقة لله عز وجل، يعقبها ـ مع عمارة الأرض ـ استقرار وطمأنينة في الدنيا، وسعادة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

شهدنا ذلك وشهدنا معه كيف أن الحاجة إلى العطاء القرآني على هذه الساحة المتسعة الأرجاء: حاجة متجددة؛ فالنسب بين الماضي والحاضر، نسب متصل، والحركة الواعية على النسق الذي حملته معالم الكتاب العزيز ـ وهي حركة نابعة من صميم الهداية ـ لا بد أن تكون بداية الطريق.

ولعل مما يزيد هذه القضية وضوحاً ما نجده من تلك الصورة الأخرى من صور التحدّي في سورة الزخرف ـ وهي سورة مكية ـ بدءاً من الآية الثلاثين؛ ذلكم قول الله جلت حكمته: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

ففي الآية الأولى بيان لصورة من صور العناد التي تكشف عن إهمال العقل والبحث عن الدليل، وعن الاستعلاء البليد على الخضوع للحجة القائمة والبرهان الساطع ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ وهو القرآن الذي أنزله الله بلغتهم ودلت البراهين على صدق أنه كلام الله تبارك وتعالى: عتوا عن أمر ربهم وانصرفوا عن البحث الجاد والحوار الذي يمليه العقل السليم إلى قضية هي عدوان على العقل والفكر السليم، وكرامة الإنسان؛ فزعموا أن هذا الكتاب المنزل بلسان عربي مبين سحر، ومن أجل ذلك هم به كافرون ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ ومسلكهم هذا سمة من سمات الجاهلية الرعناء التي تستبدل التناقض وتعطيل الملكات الفاعلة، وإعمال العقل ووسائل المعرفة، بالتفكر والتدبر واستخدام العقل بالنظر في الدليل والاقتناع بما فيه مقنع.

وشتان بين السبيل الإيجابية البانية التي تنمي الملكات والقدرة على تكوين الرأي الصائب والحُكم السليم، وبين تلك الترهات الهدامة التي تستخف بكل ما لا يجوز الاستخفاف به والانصراف عنه، لما أن ذلك يعود على الإنسان بالضياع وعلى المجتمع بالمساءة والفوضى، ويحرم الأمة من كثير من الطاقات التي تبدو معطلة عندما يستحوذ ظلام الجاهلية على القلوب، ويتنكب الناس المنهج السوي الذي يستمد وجوده من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

أما الآية الثانية: فتشير إلى شيء من التفصيل لما رأينا إجماله في سورة الأنعام. هنالك نجد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ وجاء الرد عليهم بقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

وهنا نقرأ في سورة الزخرف قول الحكيم الخبير: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

حدَّدوا المكان بمكة والطائف، وحدَّدوا الصفة التي يرونها تؤهل صاحبها لأن يتنزل عليه القرآن، وهي أن يكون عظيماً حسب تصوراتهم القبلية، ومعاييرهم الجاهلية وتعريفاتهم. فالمراد رجل عظيم على زعمهم من أيّ القريتين كان!

ومقولة المعايير هذه مطلوب ممن يكرمهم الله بمسؤولية البناء على العقيدة ومفهومات الإسلام، وهي المسؤولية المثقلة بالتبعات الجسام: أن يكونوا على بينة من أمرهم فيها وهم يواجهون معايير جاهلية متجددة، وأن يحتكموا بذلك إلى حقائق القرآن والسنة وثوابتهما، ثم ما فهم أئمة الهدى من نصوصهما المشرقة بالهداية والخير. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

مع آيات من سورة الزخرف البناء...
ومعرفة الواقع ودقة المواجهة

« ٤ »

نعود اليوم لنصحب المعلم القرآني في سورة الزخرف حيث نستجلي قبسات أخرى من ضياء تلكم الآيات التي تبدأ بالآية الثلاثين وهي قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

إن هذه الآيات تدل أوضح دلالة على أن مهمة البناء التي عهد إلى رسولنا الكريم أن يضطلع بأعبائها ـ بدءاً من تحويل الإنسان عن الشرك إلى التوحيد ـ لم تكن تلك المهمة السهلة الميسورة، ولكنها مهمة صحبها الكثير من المشاق لم يكن أقلَّها ما كان يلجأ إليه سدنة الكفر والجاهلية من تحديات يُبتغى من ورائها الحيلولة دون القرآن ودون أن يأخذ طريقه إلى القلوب والعقول، وصرفُ الناس عن التصديق بنبوته عليه الصلاة والسلام وأنه رسول يوحى إليه.

لقد ضاقوا ذرعاً بالكتاب الكريم، وعجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله، فزين لهم الشيطان وسولت لهم أنفسهم أن يقولوا: هذا سحر وإنا به كافرون. كما قال تعالى في شأن الوليد بن المغيرة المخزومي الذي أثار فيه أبو جهل نخوة الجاهلية فرجع عن رأيه الحسن في القرآن وزعم أنه سحر من قول البشر، وذلك بدءاً من الآية الحادية عشرة في سورة المدثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا

﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ أي سحرٌ يأثرُه عن غيره.

وقصة هذا اللون من التحدي الجاهلي الذي يهمل العقل ويجفو طرائق الحكم السليم وبخاصة من أناس هم أولى الخلْق يومذاك بأن يدركوا عظمة كلام الله وإعجازه ــ لأنه نزل بلغتهم وعلى معهوداتهم وأعرافهم القولية في الخطاب وهم أرباب الفصاحة والبلاغة ــ وأنه يستحيل أن يكون من كلام البشر فضلاً عن أن يكون من السحر الذي يهذي به السحرة وأهل الكهانة ويتنطعون.

قصة ذلك ما روى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر فسأله عن القرآن فلما أخبره خرج على قريش، فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة ــ يعني الرسول عليه الصلاة والسلام ــ فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله. فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا وقالوا: والله لئن صبأ الوليد لتصبأنَّ قريش.

فلما سمع بذلك أبو جهل قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل إلى بيته فقال للوليد: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألستُ أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه، فقال: أو قد تحدثت به عشيرتي؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر. فأنزل الله ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ الآيات أخرجه الطبري.

ومما يروى عنه: أنه قال في القرآن ــ قبل مكر أبي جهل بإثارة نخوته الجاهلية بدل أن يقول مثلاً: عندنا من يقول مثل هذا الكلام أو خيراً منه ــ: لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى عليه.

حتى إذا غلبه الهوى وأثار فيه أبو جهل حمية الجاهلية العمياء: عدل عن قوله الأول القائم على المعرفة والتذوق، وجنح إلى الجهالة ودعوى أن هذا الكلام المعجز سحر يأثره رسول الله عن الناس. إنها المشقة تكتنف طريق العاملين البُناة بإيمان ومنهجية وأخذ بالأسباب وفق سنن الله في هذا الكون؛ ولكن العاقبة لهم، إن هم صبروا وصابروا، وأتوا البيوت من أبوابها بموضوعية، فلم يغفلوا عن الله، وصدق التوكل عليه ودأبوا ـ مع الأخذ بالأسباب ـ على الوقوف ببابه طلباً للتأييد والنصر موقنين بأن ما شاء ـ سبحانه ـ كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو سبحانه ولي الصابرين.

إحكام البناء.. وسورة الزخرف المواجهة بإيمان..
معرفة الواقع ودرء المعيار الجاهلي

مرة أخرى نعود إلى آيات سورة الزخرف المكية في متابعة لعطاء المعلم القرآني المشرق بالبر على هديها، وهي قول الله جل وعز: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

والنظر في هذا اللون من العطاء الذي أضاء به قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وما كشف عنه من التحدي الذي ووجه به الرسول الكريم ﷺ وبارك عليه من قِبَلِ سدنة الجاهلية والمكر، في شأن القرآن والرسالة؛ حيث قادنا ذلك إلى موقف الوليد بن المغيرة المخزومي، الذي غلبت عليه شقوته ـ والعياذ بالله ـ فارتدَّ خاسراً عن كلمة الحق التي قالها في القرآن الكريم، وأنه ليس من كلام البشر، وهو الخبير بفنون القول من شعر ونثر، بعد أن خضع، لاستثارة حمية الجاهلية من قبل أبي جهل الذي دبَّر له مكيدة الافتراء بأن عشيرته تتحدث بأنه يتردد إلى أبي بكر وعمر والرسول عليه الصلاة والسلام رغبة في أن يصيب شيئاً من الطعام عندهم مع أولئك المستضعفين، فقال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

وهذه الصورة من الإنكار المعادي للموضوعية والتجرد في الحكم، بله الخضوع للحجة والبرهان: تسلمنا إلى ما يحمله قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ ويعنون بـ ﴿الْقَرْيَتَيْنِ﴾ مكة المكرمة والطائف!!.

ترى لو أنزل هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه على رجل من القريتين عظيم ـ على حد قولهم ـ أكانوا يؤمنون به؟.

القرائن كلها تعطي أنهم لن يؤمنوا حتى في مثل هذه الحال؛ لأن القضية قضية تعجيز ـ على هواهم ـ المراد منها تسويغ بقائهم على الجحود حتى بعد أن يستبين الصبح لكل ذي عينين.

وحين نقول هذا لا نقول افتراءً، ولكن تنوع المطالب والتعلّلات يدلُّ أوضح الدلالة على هذا.

هذه واحدة، أما الثانية: فإن الحق تبارك وتعالى ـ وهو العليم بذت الصدور ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ـ أبان عن هذه الحقيقة في محكم كتابه الكريم؛ فلو افترضنا حصول ما يطلبون وعلى الصورة التي تحتها يراوغون؛ فما سر ادعاء أن ما حصل هو لون من ألوان السحر، وأنهم قوم مسحورون؟! جاء ذلك في أكثر من موطن.

من ذلك قول الله تبارك وتعالى في الآية السابعة من سورة «الأنعام» ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

تلا ذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾.

وتطالعنا سورة الحجر بقوله تعالى في الآيتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة منها: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

إنها التمحلات الشيطانية التي يثيرها العناد الأبله، والإصرار على اللبث في حمأة الضلة وعماية الجاهلية، مهما حمل ذلك من التناقض، وإهمال العقل عند الحكم الذي يطلقونه على القرآن والرسول عليه الصلاة والسلام.

ولئن اشترطوا في بعض الحقب للإيمان ـ كما سبق أن رأينا في سورة الأنعام ـ أن يؤتَوا مثل ما أوتي رسل الله، وردَّ الله عليهم قالتهم الماكرة بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ إنهم هنا ـ كما نرى في الآية الحادية والثلاثين من سورة الزخرف ـ يعترضون ـ والعياذ بالله على الذي أنزله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

فكأنهم يقولون: هل كان إنزال هذا القرآن على رجل من القريتين ـ مكة والطائف ـ كبير في أعينهم، حسب المعايير المألوفة عندهم للعظمة من مال وجاه وما إليهما، ولو كان هذا العظيم في أعينهم ألعوبة بيد الشيطان، وعنصر هدم وتخلُّف عن قافلة الخير للجماعة والمجتمع!.

ويبدو من الروايات في ذلك: أنهم كانوا يعنون في حضِّهم البارد: الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف. أو الوليد ومسعود بن عروة الثقفي، أو الوليد وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي.

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم أرادوا جباراً من جبابرة قريش..

ولكن الذي في علم الله وحكمته ـ وهو العليم الحكيم ـ غير هذا الذي يريدون بمعاييرهم الهابطة، وهو جل شأنه أعلم حيث يجعل رسالته، تحقيقاً لما يصلح العباد في عاجلهم وآجلهم دنيا وآخرة أن لو استجابوا لدعوة الحق والخير.

إن الرسالة التي ترمي ـ كما شاء ربنا تبارك وتعالى ـ أن تكون رسالة بناء تبدِّل ما عليه الجاهليون في جزيرة العرب وغيرها من الأصقاع، حيث الوثنية الظاهرة عند المشركين، والوثنية المقنَّعة عند أهل الكتاب الذين غيَّروا وبدَّلوا، وتحوِّل سلوكهم وتصوراتهم في أنفسهم وفي مجتمعاتهم عن الطريق المعوجَّة اعتقاداً ونظام حياة، إلى الطريق السليمة المأمونة، وتخرجهم والإنسانية كلها من الظلمات إلى النور....

إن هذه الرسالة محال أن تُجعل إلا فيمن هو أهل لحمل أمانتها، وتبليغها على الوجه الذي ينبغي، وصنعه الله على عينه لذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

وهي رحمة من الله لا تأتي بالدعاوى والأماني الكاذبة ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟!.

فإذا كان الله هو الحكيم فيما قسم من الرزق، فليكن الإنسان على يقين من أنه ـ جلَّت حكمته ـ قد وضع الأمور مواضعها على الوجه الأكمل والأسمى، عندما اختار للرسالة الخاتمة التي هي التغيير في نفوس بني الإنسان وحياتهم إلى ما هو الأفضل أبداً على وجه اليقين بل على حق اليقين؛ محمد بن عبد الله سيد ولد آدم صلى الله وسلم وبارك عليه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.